الدّرس الصّوتي في نظر اللّسانيين العرب الوصفيين ورأي عبد الرحمن الحاج صالح

The vocal lesson from the view of the descriptive Arab linguists and the opinion of Abdul Rahman Haj Saleh.

أنور طراد

[1] جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر) TRAD.ANOUAR@Univ-Khenchela.dz

تاريخ الارسال:2019/08/29 تاريخ القبول .2019-12-09 تاريخ النشر.2019-12-15

الملخص

سعى اللّسانيون العرب المحدثون إلى إعادة النّظر في الدّرس الصّوتي، معتمدين في ذلك على ما تقدّمه النّظريات اللّسانية الحديث من طرق ووسائل، وقد تباينت آراؤهم بين ناقد، ومجدد، وبين مدافع عن رأي النّحاة، يمثل الموقف الأول أنصار الاتجاه الوصفي، ويمثل الموقف الثّاني اللّساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح، وفي هذه الورقة البحثية وصف، ومقارنة بين الموقفين.

وتوصّل البحث أن أغلب النتائج التي توصل إليها الوصفيون لا يمكن التّسليم بصحتها كلها، وأن أغلب انتقاداتهم، ونتائجهم يمكن دحضها، بناء على آراء عبد الرحمن الحاج صالح.

كلمات مفتاحية: الصّوت؛ المخرج؛ الصّفة؛ الحركات؛ المنهج الوصفي.

Abstract

Modern Arab linguists sought to reconsider the phonetic legacy relying on the ways and the means presented by modern linguistic theories Their opinions varied between "a critic and a renewedposition",and"defenders" of the grammarians' opinion.The first position represents the descriptors and the second one represents the linguist Haj Saleh. This work seeks to describe and compare these two positions. As a result, most of the findings of the descriptors are absolutely unrecognizable,and most of their criticisms and conclusions can be refuted,according to Haj Saleh.

Keywords:Sound**;** Articulatio **;**Ch aracteristics**;**Movements **;**Descript ive Method.

المؤلف المرسل: أنور طراد، **الإيميل**: tradmaster92@gmail.com

1. مقدّمة:

تُعد الدّراسات الصّوتية العربية القديمة أحد أهم، وأغنى ما قُدم في مجال البحوث اللّغوية، فقد أفاد منه كثيرون قديما وحديثا، وبشهادة الغربيين، فإن العرب قد انفردت بهذا النّوع من الدّراسة إلى جانب الهنود، إذ لم تسبقهما إليه أمة من الأمم، وقدموا نتائج لا تبتعد كثيرا عما يقرّره الدّرس الصوتي الحديث، بيد أن ما قدّمه هؤلاء العباقرة الأفذاذ من مادة ثرية لم تخل من بعض الهفوات والسّقطات أحيانا؛ لأنها ببساطة نتاج جهد إنساني، خاصة إذا علمنا غياب الوسائل، والأجهزة المتطورة، التي تكفل لهم تقديم نتائج دقيقة جدا.
وبظهور الدّراسات اللّغوية الحديثة في العالم الغربي أعطت العناية البالغة للظّاهرة الصّوتية وسخّرت لها أحدث الوسائل من مخابر، وأجهزة، وآلات حديثة تعالج الظّاهرة الصّوتية وتسجل النّتائج انطلاقا من الملاحظة، وفي ظل هذا التّطور رأى كثير من اللّسانيين العرب ممن تبنوا هذه المناهج إعادة قراءة التّراث الصّوتي انطلاقا مما تقدّمه اللّسانيات الغربيّة من طرق ووسائل علمية متطورة، ومنه الكشف عن مواطن الضّعف التي مسّت الدّرس الصّوتي القديم، وتصويب وتقويم ما لحقه من خلل وفساد، وارتأينا أن نقف عند أبرز الظّواهر الصّوتية التي لقيت اهتماما واضحا من طرف اللّسانيين العرب المحدثين، مثل المنهج المتّبع عند العرب في دراسة الظّاهرة الصّوتيّة، ومخارج الحروف وصفاتها، مركزين على أبرز أعلام اللّسانيات الوصفيّة العربية الحديثة، ومقارنين آراءهم بآراء اللّساني الجزائري عبد الرحمن حاج صالح، صاحب التّوجه التّأصيليّ.
وبناء عليه نحاول الإجابة على جملة التّساؤلات الآتية: ما موقف اللّسانيين العرب المحدثين من التّراث الصّوتيّ؟ أهو موقف تأييد أم مخالفة؟ ما هي أبرز الانتقادات التي قدّمها المحدثون للتّراث الصّوتي على مستوى المخارج والصفات؟ ما موقف عبد الرحمن حاج صالح من النّتائج التي قدّمها علماء العربية؟.
وللإجابة عن هذه الإشكالية اقتضت الدّراسة اعتماد المنهج الوصفيّ الاستقرائيّ، وكذا المنهج المقارن، كونها تسعى لاستنباط الآراء التي تعكس موقف هؤلاء من التّراث الصّوتي، ثم مقارنة بين رأي الوصفيين، ورأي عبد الرحمن الحاج صالح.

2. منهج الدّرس الصّوتي عند العرب بين الأصالة والتّأثر:

تباينت آراء اللّسانيين العرب الوصفيين في الحكم على منهج النّحاة في تناول الظّاهرة الصّوتية، وهما في ذلك على مذهبين: منكر لأصالة الدّرس الصّوتي، ومثبت لأصالته، ولكل فريق حجّته، وهذه بعض الإشارات التي تبين آراء الفريقين:

1.2موقف المحدثين من أصالة الدّرس الصّوتي العربي:

يمثل الفريق الأول كلّ من تمام حسان، وأحمد مختار عمر وغيرهما، حيث زعموا أن الدّرس الصّوتي قد حمل في جوانبه بعض مظاهر التّأثر منها: التّأثر بالمنطق الأرسطيّ في بعض مقولاته، كمقولة الكمّ والملك، حيث قرّر تمام حسّان أن تجاربه الآلية برهنت على خطأ النّحاة في قضية الحرف السّاكن والمشدّد، وبينت أن الصّوت المفرد السّاكن في آخر الكلام أطول من نظيره المشدّد، إذا كان في الوسط من جهة المدّة [1]، أما المقولة الثّانية، وهي مقول الملك، فيظهر تأثرهم بها من خلال اهتمامهم بالأصوات الصّامتة، وإعطائها رموزا في بنية الكلمة، أما الحركات، فهي ملك يمين، ووصف للحرف الصّامت، إذ يكون هذا الحرف إما مرفوعا، أو منصوبا، أو مجرورا، وكانت هذه الحركات عندهم كعارض يعرض على الكلمة، وليس جزءا منها، لذلك لا نجد لها رموزا خاصّة في بنية الكلمة.[2]

ويعتقد أحمد مختار عمر احتمال وجود تأثير هنديّ على الدّرس الصّوتي العربيّ، ويظهر ذلك جليًا في ترتيب الخليل للحروف، وبدئه بالحروف الأعمق ثم الأقل عمقا، أي أن التّرتيب بدأ تصاعديا من أقصى الحلق إلى الشّفتين، إضافة إلى اعتماد الأساس النّطقي أولا في تصنيف الأصوات، وهو ما يطابق منهج الهنود، وعليه "فمن المحتمل جدا أن يكون الخليل قد سمع بترتيب صوتي عند الهنود لحروف لغتهم فقام بنفس المحاولة على اللّغة العربية، ولكن دون أن يحاكيهم في ترتيبهم الذي اختاروه"[3]، ثم إن اعتماد مكان النّطق، ودرجة الاتصال والتّقارب بين الأعضاء أساسا في التّصنيف يضارع ما هو كائن عند الهنود.[4]

2.2 موقف عبد الرحمن الحاج صالح من أصالة الدّرس الصّوتي:

إن المتتبع لكتابات عبد الرحمن الحاج صالح لسوف يجده في معظم المواضع ينكر حصول تأثّر بين الدّرس الصّوتي العربيّ القديم، والدرس اليونانيّ، والهندي في المراحل الأولى تحديدا، ذاكرا أوجه الاختلاف بين القبيلين، وبهذا يقرّ صراحة بأصالة البحث الصّوتي العربي، وهو إقرار تدعمه الأدلة الآتية:

ـ إن تقسيم الحروف عند علماء العربية إلى صحاح، وحروف لين، رغم التّشابه بينهم وبين تقسيم اليونانيين، غير أن هناك فروقا كثيرة، فحين يقسم العرب الأصوات إلى صحاح، ولين يقسمون الأصوات اللينة إلى حروف توام (المد)، وحروف ناقصة وهي الحركات، وقد حدد سيبويه صفتها بأن قال: "ليست مهموسات، ومخرجها متسع لهواء الصّوت، وهو ما يؤكده ابن جني حين قرّر أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللّين، ومن هذا المنطلق يختلف تقسيم العرب عن تقسيم اليونانيين، وما كان للخليل، وتلامذته أن تغيب عن أذهانهم مثل هذه الحقائق"[5].

ـ إلى جانب مناقشته للفروق بين الدّرس الصّوتي اليوناني، والعربي التي قد توهم القارئ بوجود احتكاك، وتأثر بين القبليين، يعرض عبد الرحمن حاج صالح لقضية تأثر النّحاة بالمنطق الأرسطي مفندا حصوله في القرون الأولى مع الخليل وسيبويه، ولا شك أن هذين العلمين قد وضعا اللّبنات الأولى لعلم العربية صوتا وصرفا ونحوا، ولم تذكر المصادر أن الخليل أو سيبويه قد اطلع على تراث اليونان، أو الهنود كما يزعم بعض المحدثين أمثال تمام حسان، ومختار عمر، ويؤكد الحاج صالح أن الخليل وسيبويه، وغيرهما قد انفردوا بمنطق خاصّ، يقوم على أساس رياضي، ومثلوا له بطريقة علمية صحيحة كما في بُنى الكلم، حيث استعملوا حروف ف/ع/ل، كرموز للمتغيرات، وهو اختراع عظيم يُعد جديدا على الدّراسات اللّسانية الحديثة"[6].

ويمكن أن نضيف دليلا آخر يثبت أصالة الدّرس الصوتي العربي وهو غياب روايات التي تدل على وجود تأثر حاصل بينهما، وهذا القول يدعمه شهادة المستشرقين أنفسهم أمثال الإنجليزي فيرث حين أقرّ بفضل سبق العرب والهنود في مجال الدّراسات الصّوتية، فهذا الإقرار لا يحمل عبارة صريحة تدل على أن أحد الدّرسين تأثّر بالآخر، كما تحمل دليلا آخر على أسبقية الدّرس الصّوتي العربي على الدّرس اليوناني، ومنه عدم إمكانية تأثّر العرب باليونان في المراحل الأولى تخصيصا.

3.مخارج الحروف بين القدماء والمحدثين:

اعتمد علماؤنا الأوائل على معايير للتفريق بين الحروف، فمنها ما هو متعلّق بالجانب النّطقيّ المحض، وهو المخرج، وموضع النّطق، ومنها ما يتعلّق بالجانب السّمعي والنّطقي معا، فقسمت إلى مجهورة، ومهموسة، وشديدة، ورخوة، وبينيّة، ونجد أن هذا التّقسيم نفسه اعتمده المحدثون في نظرتهم للحروف

الصّامتة، والصّائتة أيضا، مع بعض الاختلاف في المصطلح، وفي طريقة الحكم على صفة الجّهر والهمس (اعتمدوا الأوتار الصوتية).

1.3 مخارج الحروف عند المحدثين:

اتّفق القدماء والمحدثون في تحديد كثير من مخارج الحروف واختلفوا في بعضها وهي التي نسبها القدماء للحلق، في حين رأى المحدثون أنها تتوزع على مناطق ثلاث، هذه الحروف هي(العين، الحاء، والخاء، والهمزة، الهاء،والغين) فالهاء والهمزة تُنسب للحنجرة وهي أعمق مناطق النّطق، وقد نسبها سيبويه، وغيره لأقصى الحلق ، والحاء والعين من الحلق وحددها سيبويه وابن جني بأنها من وسط الحلق، أما الغين والخاء، فهي من أقصى الحنك، وزعم القدماء أنها من أدنى الحلق، وعليه لا يمكن قبول رأي علماء العربية إلا إذا علمنا أنهم قصدوا بالحلق منطقة واسعة تشمل كلا من الحنجرة، والحلق، وأقصى الحنك.[7]

ويظهر الخلاف أيضا في حرف الضّاد، حيث نظر إليه علماء العربية على أنه متقدّم، ومستقلّ عن الطّاء والتّاء، والدّال، في حين أقرّ المحدثون أنها تخرج من ذات مخرج تلك الأصّوات، إضافة إلى خطإ آخر وقع فيه سيبويه، وهو وضع الألف في التّرتيب مع الهمزة، وباقي الحروف الصحيحة، ونسبها إلى أقصى الحلق، إذ تُعد حركة فقط (حركة طويلة بتعبير المحدثين)، فلا مكان لها في الألفباء التي تحتوي على الحروف الصحيحة فقط.[8]

كما اعتمد المحدثون التّرتيب التّنازلي بعكس القدماء، أي ترتيب يبدأ بالأصوات الشفوية نزولا إلى الأصوات الحلقيّة والحنجريّة.

2.3 مخارج الحروف عند عبد الرحمن الحاج صالح:

الأمر يختلف نوعا ما عند عبد الرحمن الحاج صالح، فما يمكن أن نستشفه من كلامه هو ميله الشديد للنّتائج التي قدّمها النّحاة في الأغلب الأعم، لذلك تراه في أغلب المواضع يشيد بالنتائج المقدمة ودقتها، ففي حديثه عن تقسيمات النّحاة للحروف الأصلية والفرعية (المستحسنة والمستقبحة)، وكذا تحديد طبيعة هذه الأصوات من حيث المخرجُ والصفة، ليوحي بعبقريتهم الفذّة في دراسة الأصّوات، يقول: "وفي تحليلهم لهذه الحروف حددوا ما سمّوه بالمخارج كما أثبتوا ما سمّوه بالصفات فأحصوا كل ذلك، فهي عند سيبويه 16مخرجا، ونحو 16 صفة، فالأولى تخص حيز الحرف، والثّانية هي فصل للتمييز بين الحروف في

داخل المخارج، فمن الحلقي، والنطعيّ، واللّثويّ والشفويّ، إلى المجهور، والمهموس، والشّديد، والرّخو، والمستعليّ، والمستفل، والمطبق، والمنفتح. وغير ذلك، فأن يستطيع النّحاة أن يتعرفوا على مخارج الحروف (كمصدر بمعنى كيفية إحداثه) أصولها، وفروعها، وما كان شائعا منها، وما كان أقل من ذلك بكثير فهو من أعجب ما حققوه، وهو دليل آخر على كثرة التّنقيب، وكثرة التّحريات التي قاموا بها لتحقيق ذلك"[9]، هذا القول يؤكد على موافقته للنّحاة فيما قدّموه من نتائج.

وسلك الحاج صالح التّرتيب نفسه الذي جاء به الخليل وسيبويه واصفا إياه بالمصفوفة التي لها مدخلان هما المخارج، والصّفات(المصفوفة من المصطلحات الرياضية). ولم يخرج على ما نعلم عن ترتيب القدماء ونسبة الحروف لمخارجها، فحين يتحدث عن الهمزة مثلا لا يقول أنها من الحنجرة بل ينسبها لأقصى الحلق، وكذا الهاء والعين من وسط الحلق[10] ، كما هو شائع عند المتقدمين.

4_الحروف المجهورة والمهموسة:

عرّف المتقدّمون كل من الجهر والهمس بقولهم إن "المجهور حرف أُشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النّفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصّوت،(...)، وأما المهموس، فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النّفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النّفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه"[11]؛ أي أنك إذا كرّرت الحرف المهموس مع جري النّفس أمكنك ذلك فتقول: سَسَسسَ، ككَكَكَ، ولتعذّر عليك الأمر في المجهور.[12]

واتّفق النّحاة على العموم على أن الحروف المهموسة هي: هـ، ح، خ، ك، ش، س، ت، ص، ث، ف، وجمعها بعضهم في عبارة: حثه شخص فسكت[13]، وما عدا ذلك فمجهور.

1.4 عند المحدثين:

وافق كل من إبراهيم أنيس، وتمام حسان، وكمال بشر القدماء في معظم ما عدّوه مجهورا ومهموسا، كما خالفوهم في أصوات أخرى، وبيان ذلك في الآتي:

_الطّاء: صوت أسنانيّ لثويّ شديد مهموس مفخم، وليس مجهورا كما زعم القدماء.[14]

_القاف: صوت مهموس لا مجهور، ويحتمل أن يكون وصف النّحاة له بالجهر أنهم يصفون صوتا آخر هو الذي نلمحه اليوم في لهجة السودان، وهو الصّوت الذي يقترب من الجيم القاهرية، ورمزه الدّولي(G).

_الهمزة: صوت ليس بالمجهور ولا بالمهموس، ويحتمل أن يكون القدماء قد وصفوا همزة بين بين، أو الهمزة المتبوعة بحركة فتكون بذلك هذه الحركة هي التي أعطتها صفة الجهر، أما ما عدا ذلك فلا يمكن وصفها بالجهر ولا بالهمس "لاستحالة ذلك استحالة مادية، ما دامت الأوتار الصّوتية مقفلة في أثناء نطقه"[15]، وهذا الرّأي أخذ به كل الوصفيين دون استثناء.

والأساس الذي اعتمده المحدثون في الحكم على الصّوت بالجهر والهمس، هو تذبذب الأوتار الصوتية، فالمجهور يحدث تذبذبا في الأوتار أثناء النّطق به، والمهموس عكس ذلك.

2.4 عند عبد الرحمن الحاج صالح:

سبق الحديث عن إعجاب عبد الرحمن حاج صالح بصنيع النّحاة في باب مخارج الحروف وصفاتها، وهذا جعله يؤكد الحقائق التي أقرّوها ولم يخرج عنها في الأغلب الأعم، وأكد أن تمييز الأصوات من حيث الجهر والهمس عند علماء العربية تمييز دقيق " لم يكتشفه الغربيون إلا بعد اطلاعهم في القرن التّاسع عشر على ما كتبه العرب والهنود."[16]

والأصوات المجهورة كما حدّدها عبد الرحمن حاج صالح هي: ب ج د ذ ز ض ع غ

أما المهموسة فهي: ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه

ويستشف من تصنيفه هذا أنه لا يخرج عما قدّمه القدماء سوى تعليقه على بعض الأصّوات كالطّاء، والقاف، والضّاد، إذ يشير إلى أن هذه الأصوات يختلف نطقها الحاليّ عما كانت تُنطق به قديما.

ويؤكد أن معيار الجهر عند المحدثين قد توصل إليه القدماء، وذلك في ما أشار إليه السيرافي من أن المجهور يدخله الصّوت الذي يخرج من الصّدر، وصوت الصّدر حسب عبد الرحمن حاج صالح هو الصّوت الحنجري بدليل مقابلته للنّفس عند سيبويه، ويضيف حقيقة أخرى للتمييز بين المجهور والمهموس باعتماده على التكنولوجيا الحديثة، وهو أن التّوتر الغشائي زائد في المجهور بمقارنته مع المهموس.[17]

وقد أضاف صورا أخرى فرعيّة لكثير من الأصوات ينطق بها في النّطق الحاليّ في بعض اللّهجات المختلفة منها أصوات لها أصول في اللّهجات الحديثة، ومنها ما لا أصل لها، وإنما هي وليدة اللّهجات الحديثة من ذلك: التّاء المنطوق بها سينًا عند بعض المشارقة، فيقولون في مثلا مسلا، والثّاء المنطوق بها تاء عند أهل المغرب (ثوم تقال توم)، والجيم المنطوق بها زايا، والجيم التي كالياء، والصّاد التي كالزاي، وهلم جرا.[18]

5_الشّدة والرّخاوة:

1.5 عند علماء العربية

هذا الاعتبار الثّالث الذّي اعتمده علماء العربية، وتبعهم في ذلك المحدثون، ومضمون الشّدة، والرّخوة، هو أن الحرف الشّديد: " الذي يمنع الصّوت أن يجري فيه، وهذه الحروف هي: الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطّاء، والتّاء، والدّال، والباء، وذلك أنك لو قلت ألحجَ ثم مددت صوتك لم يجز ذلك، ومنها الرّخوة وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشّين، والصّاد، الضّاد، والزّاي، والسّين، والظّاء، والثّاء، والذّال."[19]، وتجمع الأولى في قولك: أجدك طبقت(حروف شديدة)، ومنها ما يعد بين الشّديد والرّخو، وتجمع في قولك: لم يروعنا، وما بقي منها فأحرف رخوة [20]، وأضاف ابن الجزري أن الشّدة من صفات القوّة، والرّخاوة من صفات الضّعف، كما أن الجهر من صفات القوّة، والهمس بعكس ذلك، وجعلها ابن الجزري خمسة فقط جمعها في قوله (لن عمر).

2.5 عند اللّسانيين العرب الوصفيين:

ما قيل في الأصوات المجهورة، والمهموسة يقال في الشّديد والرّخو والمتوسّط، حيث وافق المتأخرون النّحاة في أكثر ما قالوه في هذه الأصّوات، إلا أن الخلاف وقع أيضا في بعضها وهي الضّاد، والعين، تفصيل ذلك على النّحو الآتي:

_ **الضّاد:** صوت شديد(وقفة) عند الوصفيين عامة، ويحتمل أن النحاة وصفوا صوتا آخر غير الضاد التي ننطقها اليوم.

_ **العين:** وهي صوت حلقي رخو مجهور عند الوصفيين، وسبب عدّها متوسّطة عند القدماء عدم وضوح الاحتكاك في نطقها، إذ هي أقلّ الأصوات الاحتكاكية احتكاكا، وزعم تمام حسان أن التحاليل المخبرية

وضّحت أن في نطق العين تضييقا كبيرا للحلق وهذا ما رجّح احتكاكيتها[21]، وكذا الجيم التي عدّوها صوتا مركبا لا شديدا كما هي عند القدماء.

3.5 عند عبد الرحمن الحاج صالح:

حين يتحدث الحاج صالح عن الأصّوات الشّديدة والرّخوة والبينيّة لا نجده يخرج عما قدّمه النّحاة، ويخالف أحيانا ما ذهب إليه المحدثون من أن العين صوت رخو (احتكاكي)، إذ يعدّها صوتا بينيا كما هو عند النّحاة، وذكر أن الأبحاث المخبريّة التي أجراها دلّت على صحّة ما جاؤوا به يقول: "نرى اليوم وبفضل التجارب والمشاهدة المخبرية صحة ما ذهبوا إليه من أن العين ليس حرفا شديدا محضا ولا حرفا رخوا محضا"[22] ، أما الضّاد فقد ذكر لها أوجها، ورأى أن نطق القرّاء لها اليوم يختلف عن وصفها المقرر لدى القدماء، إذ ينطق بها دالا مفخّمة، بينما هي عند سيبويه تُنطق من أوّل حافة اللّسان، وما يليه من الأضراس.[23]

6/ الحركات الطويلة والقصيرة:

وتسمّى الحركات الطويلة عند القدماء بحروف المدّ وهي كل من الألف والواو والياء، وأكد المحدثون أن علماء العربية لم يعنوا بهذا النّوع عناية كافية بالرغم من أهميتها في بنية الكلمة، ولكن في مقابل ذلك وجدت إشارات تؤكد على أنهم عرفوا كنهها مخرجا وصفة، كما أدركوا حقيقة الحركات القصيرة من حيث الكمية والصّفة، وما قدّموه في هذا الشّأن لا يبتعد كثيرا عما يقرّه الدّرس الحديث، ومن أوجه الاتّفاق بين القدماء، والمحدثين في شأن الحركات نقاط نلخصها في ما يلي:

ـ إقرار القدماء أن الحركات القصار جزء من الحركات الطوال، وهذا ما تؤيده التّجارب الحديثة من أنه لا فرق بينهما إلا في الكميّة، يقول ابن جني: والحركات أبعاض حروف المد واللّين."[24]

ـاتفاقهم على أن هذه الحركات مجهورة، وإن كان القدماء لم يتكلموا عن جهر الحركات القصّار، غير أن المحدثين يؤكدون على أن ما ينطبق على الكلّ ينطبق بالضرورة على الجزء.

ـ اتّساع مخرج الهواء حين النّطق بها، يقول سيبويه: وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مُخرجها، وأخفاهن وأسعهن مُخرجا: الألف، ثم الياء، ثم الواو."[25]

وهو ما يؤدي إلى خاصية أخرى هي قوّة التّأثير السّمعي، وهو أمر أدركه القدماء، وأقرّه المحدثون، إذ رأى كمال بشر أن القدماء، قد أدركوا هذه الخاصيّة، وذهبوا إلى أن حروف المدّ لها تأثير سمعي أكبر من بقية

الأصّوات، وقد جرى نعت هذه الصّفة على حروف المد فقط عند أغلبهم لكن ذلك ينطبق أيضا على الحركات القصار كونها جزءا منها وبعضها.[26]

وفي مقابل هذا الإدراك الذي وصل إليه النّحاة، إلا أنه قد غابت عليهم بعض الجوانب الأخرى، ويمكن تخليص ذلك فيما يلي:

_ تعامل النّحاة مع الحركات القصيرة كما لو كانت عارضا يعرض للحروف، وليست جزءا من الكلمة، لذلك لم توضع لها رموز مستقلة في صلب بنية الكلمة، كما هو حال الأحرف الصّامتة، وبيّن كمال بشر أثر هذه النّظرة في قوله مشبها الحركات بالطّلاء إذا عُزل عن بنائه، فكما أن عزله يؤدي إلى تغير في البناء وتشوّهه، فإن غياب الحركة من بنية الكلمة يؤدي إلى وقوع اللّحن فيها وتشوهها.[27]

_ خاض القدماء في مناقشات فلسفية منها قضية الأصل والفرع، فمنهم من رأى أن الحركات الطوال أصل، والقصار مأخوذة منها، ورأى آخرون عكس ذلك، ويرى المحدثون أن كلا الفريقين قد وقعا في تعصب وافتراض، وانتصروا للفريق الثّالث الذي ينكر فكرة الأصلية والفرعية، كونه في نظرهم أقرب للعلمية، وعليه فلكل صنف كيانه ووظائفه في الكلمة، حتى وإن وقع تشابه في عمليات النّطق بينهما.[28]

1.6عدد الحركات عند ابن جني:

استقرّ لدى النّحاة أن الحركات ثلاثة (فتحة، وكسرة، وضمة)، بيد أن ابن جني كان له رأي آخر، إذ يرى أن الحركات في حقيقة الأمر ست فزعم أن بين كل حركتين حركة يقول: "، أما ما في أيدي الناس من ظاهر الأمر فثلاث، وهي الضّمة والكسرة والفتحة، ومحصولها على الحقيقة ست، وذلك أن بين كل حركتين حركة، فالتي بين الفتحة والكسرة هي الفتحة مثل الألف الممالة، نحو فتحة عين عالم، وكاف كاتب (...)، والتي بين الفتحة والضمة هي التي قبل ألف التفخيم، نحو فتحة لام الصلاة والزكاة.. والتي بين الكسرة والضمة ككسرة قاف قيل، وسير، فهذه الكسرة المشمّة ضمة، ومثلها الضمة المشمة كسرة.. كضمة عين مذعور..."[29]

وعلّق كمال بشر على رأي ابن جني مبينا أن الرجل قد كان له نصيب من الصّحة في ما قاله، كما كان له نصيب من الخطأ. لقد كان له من الفطنة والعبقرية ما جعله يدرك أمرا غاب على أكثر النّحاة والقرّاء، وهو اختلاف الحركات نطقا باختلاف السّياقات، يدل على ذلك إشارته إلى مواضع جواز وعدم جواز وقوع الإمالة، بيد أنه أخطأ حين نظر إليها كما لو كانت حركات مستقلة لا زائدة شأنها شأن الفتحة، والكسرة، والضمة.[30]

2.6 عدد الحركات عند كمال بشر:

عند دراسته لعدد الحركات في اللّغة العربيّة الفصيحة ركّز كمال بشر على الجانب النّطقي، لا الوظيفي، معتمدا على معايير ذات مرجعية بنيويّة وصفيّة هي:

_تحديد المستوى اللّغوي، وهي العربية الفصيحة، وتجنب العودة إلى اللّهجات قديمها وحديثها.

_تحديد البيئة اللّغوية والفترة الزّمنية، وهي ههنا العربية كما ينطقها مجيدو قراءة القرآن في مصر في هذا الزمن.

وبناء عليه أكد أن الحركات في اللّغة العربيّة الفصيحة اليوم هي ثلاث حركات فقط تختلف طولا وقصرا، وقد جمعها تحت اسم واحد بناء على صفاتها النطقيّة، وأطلق عليها اسم الحركات، وهو يقصد الحركات القصار والطوال معا، غير أنه فرّق بينهما من ناحية الوظيفة إذ لكل طائفة منهما دور وقيمة دلالية تختلف عن الأخرى في بنية الكلمة، ودلالتها، كما في قولك (قتل وقاتل). وعليه فهي ثلاثة من حيث التّسمية وكيفية النّطق، وهي ست من حيث الوظيفة[31]، هذه الحركات عدّها كمال بشر حركات رئيسية لا سياقية تطريزية زائدة.

وفي مقابل هذا التّحديد رأى أن تلك الحركات الرئيسية تخضع لتغيرات نطقية بحسب السياق فكل من الفتحة، والضمة، والكسرة، لها صّور ثلاثة، إما مفخّمة أو مرققّة أو بينهما(بين الترقيق والتفخيم)، وما قيل في الحركات القصيرة ينطبق أيضا على الحركات الطويلة.

ومن مواضع التّفخيم التي يكون في الحركات المذكورة أن تقع قبل حروف الإطباق، وتكون بين التّفخيم والتّرقيق إذا وقعت قبل الحروف الثّلاثة الغين والخاء والقاف، وتكون مرقّقة مع بقية الحروف.[32]

وعليه فإن مجمل عدد الحركات هو 18حركة، بمعيار النّطق الفعلي، فلكل حركة صور ثلاثة كما قلنا آنفا، ليكون بذلك تسع حركات للقصار، وتسع للطوال، أما إذا أخذنا بالجانب الوظيفي، فهي ثلاثة فقط، وإذا أخذنا باعتبار الطول والقصر، فهي ست.

3.6 الحركة والسّكون عند عبد الرحمن الحاج صالح:

عدد الحركات عند الدكتور عبد الرحمن حاج صالح إحدى عشر حركة، فبالإضافة إلى: الفتحة، والضّمة، والكسرة، ذكر حركات أخرى، ووضع لها رموزا خاصّة وهي:[33]

_ الفتحة الممالة الممدودة وغير الممدودة

_الفتحة المفخمة الممدودة، وغير الممدودة

_ الكسرة المفخمة، وهي تنطق كما تنطق الفتحة الممالة

_الضمة المفخّمة

_ كسرة مشربة بضمة كما في قيل

_ ضمة مشربة بالكسرة كما في مذعور، وتسمى عند سيبويه روم الكسرة في الواو

_الفتحة الممالة إمالة متوسّطة، وتنطق مماثلة للفتحة المرقّقة غير المجاورة لحروف التّفخيم.

_اختلاس الحركة كالرّاء في رمضان، وكما في نطق كُتاب في المغرب العربي، إذ لا يُتصوّر أن الكاف ساكنة، لتعذّر ذلك كما تثبته الاختبار بالآلات، والأجهزة.

يذهب عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن العرب اختصت بهذه المفاهيم دون غيرها من اللّغات، فلا نكاد نجد لها مثيلا في الصّوتيات الغربية، وأكّد أن الخليل وضع أوزان العروض بالاعتماد على مفهومي الحركة، والسّكون.

وعرّف السّكون على أنه حبس بعد إطلاق، وهو وقف لا يلزم منه الانتقال، أي التّحرك إلى مخرج آخر، مؤكدا بعد هذا أن الخليل تميز بتحليله العظيم لأصوات اللّغة، وقد بنى ذلك على أساس مفهومي الحركة والسكون، فوضع صيغة للنّظام الصّوتي، هو إلى حد بعيد مصفوفة بالمعنى الرياضي، لها مدخلان المخارج والصّفات، ثم لاحظ أن حراكية الكلام ناتجة عن توالي الحركات والسّكنات؛ أي من حركات عضويّة، وهوائية

صّوتيّة تحدث الحروف وتصلها بالتي تليها، وسكنات عضوية أي إيقافات للهواء الصّائت توقف هذه الحركات.[34]

7. الصّوت والحرف:

يرى فريق من الباحثين أن النّحاة لم يفرقوا بين الصّوت والحرف، وهذا ما ذكره تمّام حسان حين فرّق بينهما، وجعل الصّوت حقيقة مادية، والحرف قسم يضم أنواعا من الأصوات، وهو فكرة ذهنيّة لا حقيقة مادية، والصّوت حسب تمام حسان جزء من تحليل الكلام والحرف جزء من تحليل اللّغة[35]، وزعم تمام حسّان أن علماء العربية لم يفرقوا بين القبيلين، ولم يدركوا حدود كل منهما، فاستعملوهما كما لو كانا شيئا واحدا.

وقد ردّ عبد الرحمن حاج صالح على القائلين إن سيبويه لم يفرق بين الحرف والصّوت على نحو ما يفرق علم اللّغة الحديث، فعلى حد قولهم أن سيبويه يطلق لفظ حرف، ويقصد به كل منهما أي صّوت وحرف، ويرى صالح أن استعمال لفظة حرف أنسب لكليهما، لأن سيبويه يقصد بلفظ حرف العنصر من اللّغة، الذي لا يدلّ على معنى، وقد يُستعمل أيضا للدّلالة على معنى في العناصر وهي الكلم، وكان السّياق كافيا في رفع اللّبس في كتب المتقدمين في استعمال كلمة حرف[36]، وفي باب الحرف دائما يذكر حاج صالح أن العرب سبقوا أهل الفونولوجيا في تحديدهم له، ولوظيفته، ويظهر ذلك عند ابن سينا في قوله: "الحرف هيئة للصّوت عارضة تتميز بها عن صوت آخر في الحدّة والثّقل تمييزا في المسموع.."[37]، وهذا القول يؤيد ما ذهب إليه المعاصرون في أن الحرف هو الصّوت.

وذكرنا أن اللّغويين العرب عبّروا عن الجانب الصّوتي، والخطّي للحرف بكلمة واحدة هي الحرف، ولم يكن يلتبس عليهم الأمر فكلما أراد اللّغوي أن يعبر عن الجانب الخطيّ مثلا نبّه إليه بعبارات تبين ذلك مثل: أما صورة الحرف في الخطّ، أو هذا موجود لفظا وخطا، لذلك استعمل الحرف للدلالة على أصغر القطع الصّوتية، وأصغر القطع الخطيّة أو المكتوبة، وكان السّياق كافيا في الفصل بين الأمرين في كتب النّحاة، ولم يلتبس عليهم الأمر في زمانهم لانشغالهم بضوابط النّطق الخاصّ بأكبر عدد من العرب الفصحاء لا ببناء فلسفة للحرف.[38]

8.خاتمة:

بعد هذا العرض المختصر أمكننا أن نقدّم جملة النّتائج الآتية:

ـ درس النّحاة الأصوات وفق منهج دقيق، واعتمدوا طرقا ما زال البحث اللّغوي الحديث يقرّها، ويتخذها أساسا له، وهي الملاحظة المباشرة، وليس من الإنصاف أن نعتمد بعض الإشارات المتناثرة التي تشابهت فيها وجهات النّظر بين العرب، والأمم الأخرى في الحكم على عدم أصالة الدّرس الصّوتي العربي، وخير شاهد على ذلك ما أقرّه المستشرقون من تفرد العرب، والهنود، وسبقهم في هذا المجال.

ـ تظهر مرجعية اللّسانيين العرب المحدثين في نظرتهم للتّراث واضحة في كتاباتهم، وهي المرجعية البنويّة الوصفيّة، وأهم أمرات ذلك، إنكار قضية الأصليّة والفرعيّة، اعتماد الملاحظة أساسا في الدّراسة، وتجنّب الإيغال في التّأويلات المنطقيّة.

ـ تظهر جوانب الاختلاف في بعض مخارج الحروف، وتحديدا الحلقية منها، وفي بعض صفات أيضا، وتحديد صفة العين والقّاف، والضّاد، والجّيم، كما اعتمد المتأخّرون في الحكم على المجهور، والمهموس من الأصوات على الأوتار الصّوتية وتذبذبها.

ـ لا يمكن الجزم بدقة كل النّتائج التي قدّمها المحدثون، كونهم اعتمدوا على المنطوق أساسا، ونحن نعلم أن هذا المنطوق يصيبه التّطور يغير من صفته أو مخرجه، وعليه ليس من الإنصاف الحكم بتخطئة النّحاة انطلاقا من هذا المنطوق المحرّف.

ـ عرض عبد الرحمن الحاج صالح أصوات اللّغة العربيّة للأجهزة المستحدثة، وانتهى إلى أن ما قدمه الخليل، وأتباعه عن مخارج الحروف، وصفاتها تُعد بحق دراسات في غاية الدّقة، وأن ما توصّلوا إليه يضارع كثيرا ما توصّلت إليه الآلات اليوم، كما حاول إثبات أصالة الدّرس اللّغوي العربي عموما، والدّرس الصّوتي خاصة منكرا مزاعم بعض الباحثين في القول بتأثر الدّرس اللّغوي العربي بما جاء عند الأمم الأخرى كالهنود واليونان.

ـ إن كثيرا من النّتائج المغايرة التي خالف بها المتأخرون نحاتنا الأوائل لا تنقص أبدا من قيمة نتائج علماء العربية، خاصة، وقد غابت عنهم الوسائل، والأجهزة المتطوّرة في ذلك الزّمن السّحيق، والتي تخوّل لهم ذلك، بالرغم من ذلك ما زلنا نقرّ بالفضل الذي قدموه، والنّتائج الدقيقة التي توصّلوا إليها، والتي تضارع كثيرا ما

توصّل إليه البحث اللّساني الحديث بوسائله وأجهزته، وإن وجد بعض الاختلافات، فمردّها إلى اختلاف وجهات النظر بين الدارسين، وشدة تقارب مخارج الحروف.

هوامش البحث

[1] حسان تمام، (1990)، مناهج البحث في اللّغة، مكتبة الأجلو مصرية، مصر، ص 20

[2]المرجع نفسه، ص22

[3] عمر أحمد مختار، (1972)، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللّغويين العرب، دار الثّقافة، بيروت، ص 142

[4]ينظر: المرجع نفسه.

[5] الحاج صالح عبد الرحمن، (2007)، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، ج2، ص180_181

[6] الحاج صالح عبد الرحمن، (2012)، منطق العرب في علوم اللّسان، موفم للنشر، الجزائر، ص12

[7]ينظر: بشر كمال، (2000) علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ص 292

[8]ينظر : المرجع السابق، ص396

[9] الحاج صالح عبد الرحمن، منطق العرب في علوم اللّسان، ص214. ينظر: الحاج صالح، عبد الرحمن، (2012)السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحه، موفم للنشر، الجزائر، ص227_228_229

[10]ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، ص428

[11] سيبويه، (1988)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج4، ص 434

[12]ينظر: ابن جني: (1993)، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم، مصر، ط2، ص 60.

[13]ينظر: المصدر السّابق ، ج4، ص 434

[14]ينظر: بشر كمال: علم الأصوات، ص 252

[15] حسان تمام: مناهج البحث في اللغة، ص 97

[16] الحاج صالح عبد الرحمن: منطق العرب في علوم اللسان، ص214

[17]ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص284

[18]ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص426

[19]سيبويه: الكتاب، ج4، ص434.

[20]ينظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، ص 61

[21]المرجع السابق، ص102

[22] الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص362

[23]ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص 427

[24]ابن جني : سر صناعة الإعراب، ص17

[25]سيبويه: الكتاب، ج4، ص 435_436

[26]ينظر: بشر كمال، علم الأصوات، ص 424

[27]ينظر: أنيس إبراهيم، (دت)، الأصوات اللّغوية، مكتبة نهضة مصر، مصر، ص43. بشر كمال، التفكير (2005)اللغوي بين القديم والحديث، دار الغريب، القاهرة، ص 428

[28]ينظر المرجع السابق، ص 449

[29]ابن جني: (دت)، الخصائص، تح: محمد علي نجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، مصر. ج3، ص121

[30]ينظر: بشر كمال، علم الأصوات، ص 453

[31]ينظر: بشر كمال: علم الأصوات، ص 461

[32]ينظر المرجع نفسه، ص461_462

[33]ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص430

[34]ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص181

[35]ينظر: حسان تمام، (1994)، العربية معناها ومبناها،، دار الثقافة، المغرب، ص 74

[36]ينظر: المرجع السّابق، ج1، ص214

[37]ابن سينا: (دت)، أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسان الطيّان و يحي علم، مطبعة مجمع اللغة العربية، دمشق، دط، دت، ص105

[38]ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص264